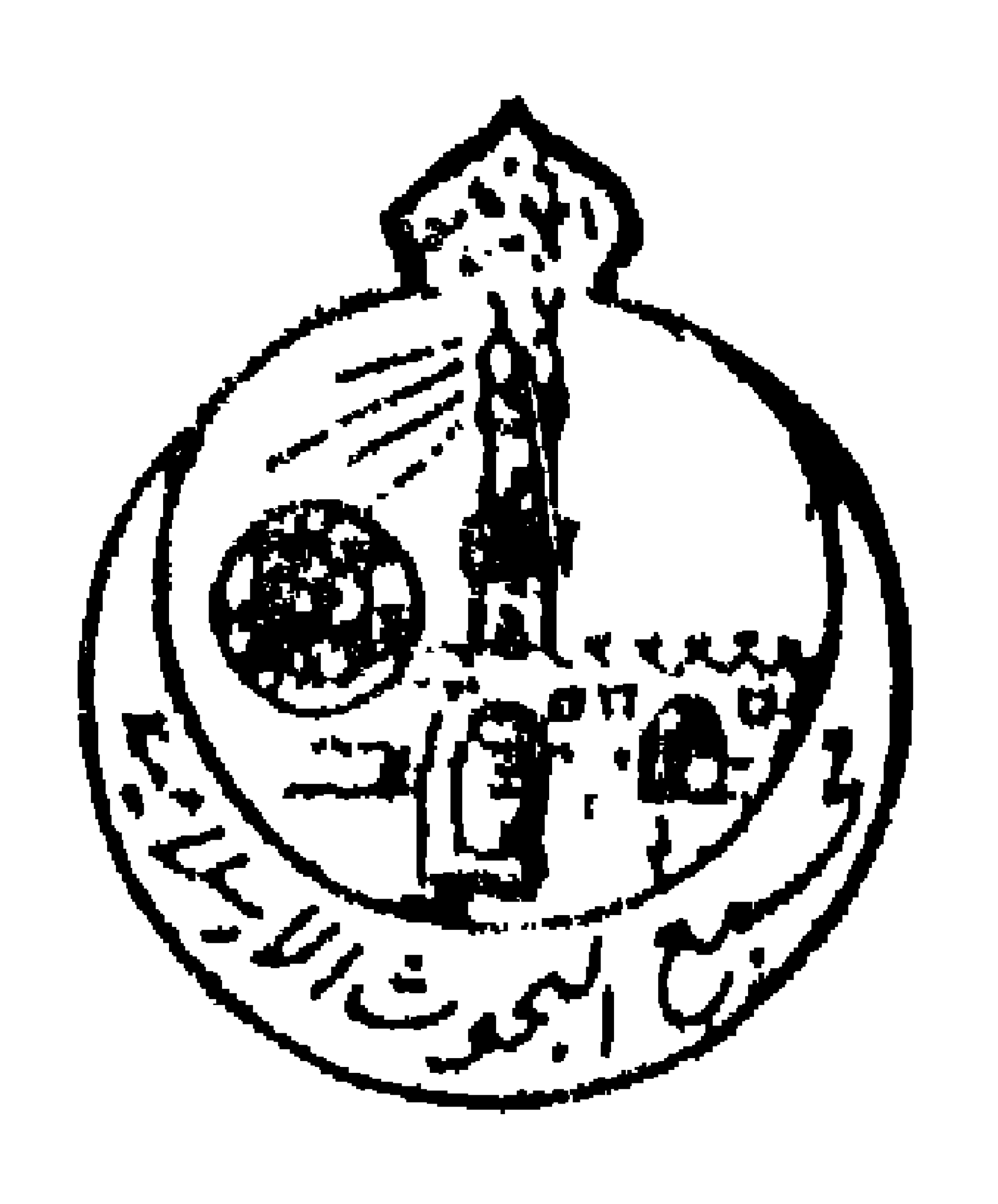


المال في الإسلام

للدكتور مصطفى عبد الواحد

هديّة من مجلة الأزهر



المال في الإسلام

للدكتور مصطفى عبد الواحد

مطبعة الأزهر

٧٠٠٠ / ٣ / ١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

المال فى مجتمع الإسلام

(١)

كان لا بد أن يكون للمجتمع المسلم موقفه الواضح الفذ من المال قيمة وسلوكا . .

إذ أن المال عنصر ضرورى فى الحياة الإنسانية أو هو قوام الحياة ودعامة التعامل فيها ، كتعبير القرآن حين قال : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما[1] » .

ونحن هنا لا نحتاج إلا إلى استقراء موقف القرآن والسنة فى تقدير المال وتنظيم العلاقات حوله، مما يصح أن يسمى بالتوجيه الاجتماعى للمال فى المجتمع المسلم ونعرض مع ذلك المواقف التى تعكس نظرة الإسلام إلى المال وتوجيهه لأتباعه فى ذلك المجال.

* * *

والإنسان لا يملك أن ينطلق فى مثل هذا العرض دون أن تزحمه ذكريات التاريخ وحقائقه إزاء موقف المجتمعات البشرية

---

[١] النساء : ٥

من « الثروة » وتصرفها فى تقديرها وتنظيمها .

فمنذ قام المجتمع الإنسانى المستقر ، لم يقر للناس قرار ولم يهتدوا إلى حـل عادل يحقق كفاية الحاجة وينفى الاستغلال ويسد منافذ الشر . ويقضى على نوازع الاستئثار والطمع ، إذ كان هناك الأقوياء الذين يستحوزون على مصادر الكسب ويستأثرون بالخير ، وكان هناك المسخرون الذين يقنعون من الحياة بجلف الخبز ، ويسيل منهم الدم والعرق فى مقابل اجتلاب ضرورى القوت ..

واختلفت حظوظ المجتمعات من الأخلاق الاجتماعية ، وتباينت نظراتها إلى الرحمة والإحسان ، وكانت رسالات السماء تقوم بدورها جاهدة فى رد الأمر إلى نصابه وتحقيق التوازن بين الأقوياء والضعفاء .

وحقيقة : لقد كان النزاع حول (الثروة) أو الموارد ذا أثر بارز فى الصراع الإنسانى ، الذى يتمثل فى حروب شاملة وثورات طاحنة ، ودماء مراقة ، واستعمار واستغلال .

ولا يقتضى ذلك أن التفسير المادى للتاريخ قول صحيح

ولكننا فحسب نشير إلى خطر المال في تاريخ البشرية ، ونرى فيه مشكلة كانت تبحث في كل الأجيال عن حل ، إلى ماتزال .

* * *

فماذا يرى الإسلام في المال ؟

وما هي الأوضاع التي يرتضيها لمجتمعه في تقديره وتنظيمه . ؟

وهل تصلح نظرة الإسلام وأوضاعه تلك لتحل تلك المشكلة في عصرنا الذي نحياه .. ؟

نظرة الإسلام إلى المال :

ولنبدأ بتوضيح (نظـرة) الإسـلام إلى المال وقيمته في مجتمعه ، فهي الأساس الذي تقوم عليه حلوله ونظمه .

إن الإسلام يرى أن المال - وهو كل ماله منفعة مباحة شرعا من أرض وعقار وثمار ومعادن وحيوان - إنما جعل للانتفاع الإنساني ، في ضوء علاقات ينظمها الإسلام ، اللهف عليها بعد يقول الله سبحانه :

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا[1] »

---

[١] البقرة ٢٩

ومعنى ذلك أن الأرض بكل ما عليها خلقت لانتفاع الإنسان وجعلت مجالا لعمله وكسبه ، وكل الثروات المبثوثة فى الأرض ظاهرا وباطنا ، نعمة من الخالق سبحانه ، أفاضها على الناس جميعا فهى الأقوات والأرزاق التى تكفل الحق سبحانه بتدبيرها وتقديرها ، بعد أن خلق الأرض وقدر عليها وجود الإنسان :

« وقدر فيها أقواتها[1] » .

وكان لا بد أن يميل الإنسان بفطرته إلى الكسب واحتياز الثروة ، إذ يرى أن قوام حياته متعلق بذلك ..

وانتهى الأمر بالإنسان إلى غريزة أصيلة ، تعلق قلبه بالمال وتصرفه إليه ..

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب[2] » .

« وإنه لحب الخير لشديد » . [3]

وفى ذلك يصف القرآن كيف انتهى الأمر وخاصة بعد

---

[١] فصلت ١٠ [٢] آل عمران ١٤ [٣] العاديات ٨

نشأة المجتمع الإنسانى المستقر، وبعد تزاحم الناس على الموارد وصراعهم من أجل خيرات الأرض ، إلى أن صار المال حافزا أصيلا لدى الإنسان أو قيمة ذات صدى فى نفسه.

فهل يلام الإنسان على ذلك . . ؟

وكيف يقف الإسلام من « حب المال » ؟

أما أن يحب الإنسان المال أو يسعى لكسبه ، فلا لوم عليه مادام يلتزم جانب العدل والحق فى ذلك ، فلا يغصبه ولا يجتلبه من معصية أو ظلم، ولكن الإسلام لا يريد إلا أن يخفف الإنسان من غلوائه ويحد من نهمه ، ويصحح نظرته إلى المال ، فيراه بمنظار الرشد والصواب ، وعندئذ يطمئن فى سعيه ، ويستريح فى كدحه ، ثم لا يحجب المال عن وجوه البذل ومواطن الإحسان ولا يغفل عن الحقوق الاجتماعية المتعلقة به .

وسبيل الإسلام إلى ذلك أن يوضح للإنسان حقيقة المال ومآله ، ويكشف له عن المدى الذى يمكن أن يسعده به سعيا إلى علاج الأثرة ورغبة فى التخفيف من حدة الصراع ، وما يمكن أن يجره على الإنسان من شقاء . .

ولهذا تكرر فى القرآن المفاضلة بين المال فى فنائه وزواله عن الإنسان أو زوال الإنسان عنه ، وبين « الباقيات الصالحات » أو القيم الثابتة فى حياة الإنسان .

فإن ذلك أجدى أن يعفى الإنسان من أدواء التكاثر والتفاخر . يقول الله سبحانه :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »[1] .

والحق أن هذه مفاضلة بين الأثرة والإيثار ، أو بين (الأنانية) والروح الاجتماعية ، فإن « الباقيات الصالحات » لا تنال إلا ببذل المال فى نواحى الواجب والخير ، ابتغاء رضوان الله .

« إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى »[2] .

ويخطىء من يظن أن القرآن يفاضل بين كسب المال ، وعدم

---

[١] الكهف ٤٦ [٢] الليل ٤ — ١١

كسبه ، فإن ذلك فل ليد الإنسان من الحياة التي استخلف فيها ، أو دعوة إلى الخروج منها وهو فيها ، ولكنه يفاضل بين احتياز المال وتقديسه ، حتى يصير عند صاحبه معبودا يسترضى أو أملا يناجى ، وبين إنفاقه في الحق ووضعه في موضعه المستقيم .

وحين تقرأ هذه الآية نجد فيها صدق ذلك :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ الذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار [1] » .

---

[١] آل عمران ١٤ ـ ١٧ .

فإن وصف الإنفاق هنا يتجه إلى أن هؤلاء المتقين يحوزون المال من حله ، ثم يجردونه فى سماحة فى سبيل الخير ويقدمونه فى مواطن الحاجة .

أما أن يفهم أن الإسلام يدعو إلى نبذ الدنيا ورفض العمل والكسب ، نفورا من المال وإيثارا لما عند الله ، فذلك فهم سقيم يتناقض مع روح الإسلام ووجهته فى الجمع بين الدنيا والآخرة .

وفرق بين هذه النظرة العادلة من كسب المال من سبله المستقيمة ، وإنفاقه فى سبيل رعاية المبادىء الفاضلة وسد مواضع الحاجة والعوز ، وبين الشراهة فى احتياز المال لذاته ، استجابة لشهوة التفاخر والتكاثر ، وتنمية لمشاعر الأثرة والرغبة فى الترف والاستهواذ ، فإن ذلك تجاوز بالمال عن قدره ، وفساد فى التقدير يؤدى بصاحبه إلى عبادة المال والنظر إلى الحياة والأحياء بمنظاره ، مما يفسد الفرد والمجتمع على السواء :

ومن هنا يقف القرآن ذلك الموقف الحاسم من حب المال وتقديسه والتعبد له ، والتجاوز به عن قدره . . حتى يحفظ

على مجتمعه النظرة المستقيمة ويذود عنه سعار المادية وحدة الصراع ويطهره من دنس التكالب على المال واتخاذه أداة للإفساد في الأرض والإخلال بالحقائق والقيم .

ولذلك يتجه إلى الجاهليين ينعى عليهم حبهم المال ذلك الحب الشديد ، الذي أدى بهم إلى جمعه من غير حله والبخل به عن مواطن البؤس والفاقة . . « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما » وهو في ذلك يصور الداء ويصف أسبابه . فما يكف الإنسان يده عن الإنسان ويجحد حق اليتيم والمسكين ولا يشره في جمع المال من أين تأتى له ، إلا حين « يحب المال حباً جماً » فيتملق قلبه بجمعه ويرى فيه غاية حياته ومنتهى آماله .

وذلك شر يتردى فيه الفرد والمجتمع ، ولا بد لطمأنينة الحياة واستقامتها من علاجه والقضاء على أسبابه .

ويقرر القرآن ذلك حين يقول ، وهو يتنزل في مكة لا يزال :

« كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » وهى في مناسبتها تمثل طغيان أبى جهل وأمثاله من كفار قريش ، حين وقفوا فى وجه الإسلام وحاولوا إطفاء نوره استناداً إلى جاههم وثرائهم ، ورفضوا بحث مضمون الدعوة الجديدة أو الإصغاء إلى منطق العدل والتأمل ، لاطمئنانهم إلى الأوضاع الاجتماعية الجاهلية ورغبتهم فى ألا يفقدوا مكانتهم ولا يهبطوا من جاههم وزعامتهم .

ولذلك نرى آيات الكتاب الكريم تتجه بضربات قوية إلى سادة الجاهلية الأثرياء ، وتكشف عن مصيرهم الأليم ، ما داموا يتعبدون للمال ويصمون عن نداء الحق . حتى تزلزل مكانتهم وتصور باطنهم الكئيب .

انظر إلى هذه الصورة الدقيقة يرسمها القرآن لبعض هؤلاء ، من عبيد المال :

« ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة » [1] .

---

[١] الهمزة : ١ — ٤

إنه جمع مالا .. كثيراً . أفنى عمره فى احتيازه ، وصار لديه معبوداً يسترضيه بالزيادة والنماء ، ثم انطلق يعيث فى أنحاء مجتمعه بالفساد والإيذاء ، مطمئنا إلى حماية المال، مستنداً إليه .. حتى ليتوهم الخلود بسببه . ولكن ذلك الوهم ضائع ، حين يفارق الدنيا وينبذ مهيناً فى جهنم .

إنها وسيلة القرآن ، أراد بها أن يحطم طواغيت المال وأن يصحح النظرة إليه حماية للمجتمع وابتغاء لأمنه . .

* * *

ويتبع القرآن ذلك بتوضيح أنه لا علاقة بين حظوظ الناس من المال وإحرازهم الثروة وبين حظهم فى الآخرة أو نيلهم لرضوان الله . . فإن الثروة ليست فى ذاتها دليلا على مكانة صاحبها عند الله ، وليست برهانا على استحقاقه التقدير والتكريم . حتى لا تكون المبالغة فى كسب المال من أى وجه ، مثلا أعلى فى المجتمع ، فيزداد الصراع وتضطرب المقاييس والقيم .

فقد يحرز الإنسان المال الوفير ، ولكنه لا يكون فى

حساب الحق شيئاً مذكوراً، ولا يتم من رضوان الله بمكان.

«أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون»[1]، ولا تقف الآيات عند هذا الحد، بل تعقب ذلك برسم صورة زاهية للذين يسارع لهم ربهم في «الخيرات» حقاً .. حتى تتحطم للمثل الزائفة التي كانت تعشي الأبصار في الجاهلية العربية .. وكل جاهلية ..
فيقول سبحانه :

«إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»[2].

إن هؤلاء الذين يبتغون من حياتهم تحقيق مثل أعلى يؤمنون به ويعملون له، والذين تسقط لديهم كل قيمة زائفة وكل نظرة إلى الحياة مختلة، فلا يرون في الثروة غاية تبتغى ولا هدفاً يذهل الإنسان عما وراءه، هؤلاء ينفقون ويؤتون

---

[١] المؤمنون ٥٥، ٥٦.   [٢] المؤمنون ٥٧، ٦١.

فى سبيل الخير « ما آتوا » « وقلوبهم وجلة » تخشى سوء الحساب وتشعر بعظم التبعة وتحس بخطر التكليف وثقل الأمانة التى حملها الإنسان .

فهما نموذجان يعرضهما القرآن ويفاضل بينهما ..

الذين يركنون إلى المال ويتنافسون فى جمعه ، ويجهدون فى حمايته ، يتفاعلون مع الحياة بالشر ومع المجتمع بالإيذاء ، فتصبح نعمة المـــال فى أيديهم نقمة ومفسدة تلحق الفساد بالمجتمع وتشارك فى اختلال قيمه واضطراب موازينه .

والذين ينظرون إلى المال على حقيقته ، وسيلة يشارك بها الإنسان فى الخيرات ، وابتلاء يمتحن الإنسان فيه على قدر إحسان التصرف فيما وهب له ، أولئك لا يستذلهم المال ، ولا تخفض هاماتهم أى ثروة مهما جلت ، ولا تحملهم على التخلى عن مبادئهم أو الإغضاء عن منكر يرونه أو فساد يشعرون به ..

— ٢ —

وفى هذا السبيل يرشد القرآن إلى عدم الاغترار بمظاهر الثروة ما دامت فى أيد مفسدة لا تحيا لخير ولا تؤمن بحق..

فإن مثل هذه الثروة المسمومة لا تسعد فرداً ولا مجتمعاً، بل هى نوع من الاستدراج نحو البوار والشقاء ..

يقول الله سبحانه :

« ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »[1].

وعجيب فى المنطق المادى أن تصير الثروة أداة عذاب لصاحبها ، ولكن الحقيقة التى يؤيدها التاريخ أن المال والثروة والمتاع ما دامت غاية تصرف صاحبها عن الواجب والحق والخير ، بل تدفعه إلى دركات الطمع والضراعة والشح والجحود ، فإنها حينئذ شر على صاحبها وعلى المجتمع ، وهى فتنة تجلب له الشقاء وتسبب له الكدر .

ولهذ لايبالى القرآن بهوان الثروة والزينة حتى لتوهب

---

[١] التوبة ٨٥ .

مظاهر النعيم والجاه للكافرين اطمئنانا إلى أن هذا ليس تكريما فى الحقيقة مالم يصحبه الإيمان ولم يقترن بالعمل الصالح.

يقول الله سبحانه :

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين »[1].

والحق أن الله سبحانه لايهب للإنسان من الدنيا على قدر إيمانه ، بل إنه لم يربط بين العطاء والعقيدة التى تستقر فى القلب ، بل جعل مجال الكسب والاحتياز يتسع لكل إنسان على قدر الأسباب التى يسلكها ، وجعل من الحقائق التى يؤمن بها المسلم أن التكريم ليس فى العطاء ، ولا الإهانة فى الحرمان ، حتى تفهم الأمور على حقيقتها : «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا . . »[2].

---

[١] الزخرف ٣٣ ــ ٣٥ .   [٢] الفجر ١٥ ــ ١٧ .

وقد كانت المفارقة بين حال المؤمنين فى ضيقهم وشدتهم وبين ما كان يرفل فيه الكافرون من متاع وزينة، تجعل بعض المؤمنين يتعجبون ويتساءلون : لماذا لا يخص الله المؤمنين بالدنيا أو يضمن لهم حظا وافرا منها ؟ .

وقد أجاب الرسول صلوات الله عليه عمر بن الخطاب — حين بكى — لما دخل على الرسول فوجده مضطجعا على حصير وقد أثر فى جنبه .

وقال للرسول : ذكرت كسرى وقيصر وهما ينامان على الحرير ، وأنت رسول الله كما أرى ، فقال له : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ . قال : بلى ، قال : فإنه كذلك »[1].

ولا بد أن نقف عند قول الرسول : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ، إن هذا القول لا يعنى أن يدع المسلمون الدنيا والعمل فيها واستغلالها وعمارتها بالكافرين ويقنعوا بأن لهم الآخرة كلا كلا .

[١] الحديث أصله فى الصحيح .

فإنهم إن تركوا الدنيا بهذا المعنى فليس لهم فى الآخرة أيضا شىء ، وهم حينئذ يخونون أماناتهم ويهملون تبعاتهم .

ولكن معنى هذا القول النبوى لا يعدو أن يكون استعلاء على النعيم الزائل المنقطع ، والرفاهية التى توحى بمعانى الغرور والإخلاد للراحة .

وقد كان المسلمون منذ الهجرة إلى المدينة يعيشون فى حال تأهب وتحفز ، وقد كانت للسنوات العشر التى عاشها الرسول فى المدينة ، حافلة فى كل لحظاتها بالمتاعب والمصاعب والأعباء .

وكانت الأحوال الاقتصادية لم تستقر وآفاق الكسب والعمل تتفتح بعد .

فإذا كان عمر بن الخطاب يستنكر أن ينام رسول الله على حصير ليس بينه وبين جنبه فراش ، فيؤثر فيه ، بينما كسرى وقيصر يتقلبان على الحرير ويتحليان بالذهب ، فإنه

لا به الرسول ، فى يقينه وعلو همته ، أن يعلو بطاقات عمر إلى المتاع الدائم والنعيم الذى لا يحول فى الآخرة حيث يجزى المؤمن جزاء عمله وجهاده .

ولا نبعد فى التأويل ، فكثير من المغامرين وأصحاب المطامع فى الدنيا ، يرفضون المتاع ولا يخلدون للنعيم ويخلصون لأهدافهم مهما كانت ويرون الدائم فى تحقيق ما يريدون .

فليس بغريب على رسول الله صلوات الله عليه ، أن يترفع عن الحرير ، وأن لا يرى فيه متاعا ولا لذة ، ويبتغى عند الله الأجر والجزاء

ولكن العجيب أن تتخذ أجيال من أمته من هذا القول حجة على سلوك مسالك الجهالة والضعف والتخاذل والقناعة من العمل والكفاح بحظوظ دنيا ، لا تلائم رسالتهم ولا تضعهم فى مواضعهم فى الحياة .

والكلمة الحاسمة فى هذا الموضوع ، هى أن الإسلام

يقضى على أبنائه من عبادة المال ونسيان الأهداف والقيم العليا .

لقد كان الجيل الأول الذى تحمل أمانة الدعوة والجهاد من أجلها يعيش فى إخبات وإخلاص لرسالته ، وقد عالجوا فيما بينهم مشكلة المال وانتهوا إلى حل لم يدع شهوة الثروة والاحتياز تطغى عليهم وتبعثر غاياتهم .

وكانت لهم حساسية شديدة ، وخوف دائم : أن تفتح عليهم الدنيا فتنسيهم الغايات العليا وتصرفهم عن وجه الحق

مما جعل الرسول صلوات الله عليه ينذرهم بوصاياه المحذرة فى هذا الشأن من حب الدنيا فيقول صلوات الله عليه « والله ما الكفر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تفتنكم بزهرتها »[1] فإن النزاع حول الثروة والتنافس فى إحرازها لا يبقى معه جهاد ولا فداء ، ولا يسير فى ركابه إيثار ولا إحسان وليس معه إلا الصراع على الدنيا وإيثار حظوظها والإخلاد لمتاعبها .

---

[١] أخرجه البخارى .

وهذا أعظم خطر يصيب الدعوات والرسالات .

وقد حذر القرآن منه وبين خطره على الدعوة وعلى المؤمنين بها فى قوله :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين [1] » .

والتاريخ شهيد أن كل الأديان والرسالات ، بل حتى الحضارات ونزعات الإصلاح لم يبتر جهودها ولم يعق خطوها إلا انصراف بعض من يتصدون لها ويدعون إليها نحو غايات مادية وإيثارهم لأغراض قريبة ، مما جعلهم يختلفون ويتنازعون ويكيد بعضهم لبعض ، والخاسر فى ذلك هو المبدأ والدعوة .

وهذا باب واسع فى تاريخ الإسلام .. تملأ ذكراه النفس بالأشجان والأحزان ..

---

[١] التوبة ٢٤ .

فلقد كان الانحراف عن سنن التضحية والفداء . وكانت الخيانة والتظالم والسعي نحو المآرب الفردية وتجاهل مصلحة الجماعة ، كان كل ذلك نابعا من حب المال والفتنة بالثروة والتهافت على المناعم والملاذ ..

وكان الباب الخطير الذي فقد فيه المجتمع المسلم كثيرا من خصائصه التي كان يحرص عليها ويسعد بها .

ولعمري . أن الذي يراجع أحوال نشأة المجتمع المسلم الأول ، يجد جانبا كبيرا من قوته وسنائه واستقامته على نهج الله يعود إلى موقفه الفذ من المال ، وأنه كان لا يسمح بالانحراف نحو الغايات المادية وكان يرى في ذلك الانحراف فسوقا وهلكة وخروجا عن ميثاق الله ..

يقول الله سبحانه .

« وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين[1] » فيعلن بذلك لكل فرد

[١] البقرة ١٩٥ .

فى المجتمع المسلم أن ضنه بالمال وفتنته بجمعه وشحه من الخير إنما هو هلكة تفسد حياته وتدس مستقبله وتخرجه من نهج الإيمان .

وقد شاعت هذه الهلكة فى كثير من أنحاء المجتمع المسلم منذ فتن الناس بالثروات ، وتظالموا فى احتيازها ، وضحوا بالمبادىء فى سبيلها ، وتقاعسوا عن الجهاد والنصرة ، وسقطت عزائمهم ووهنت حميتهم ، وصار العرض القريب يملك اهتمامهم ويصرف مسالكهم ..

وكم دهى بذلك المجتمع المسلم ، وكم أصابته الدواهى والكروب .

وكم من أفراد أدنياء باعوا مصالح أمتهم وخانوا أماناتها ، ابتغاء ثروة أو نفع يزول ويفنى ، ولكن خياناتهم لا تزيلها الليالى والأيام ..

* * *

بل لقد كان الجيل الأول للمجتمع الإسلامى ، يرى فى حصول

الذممة واحتياز المال نقصا من أجر الكفاح ونقصا من ثواب الجهاد، وكان منهم من يؤثر أن لو لقي الله ولم يصبه من حظوظ الحياة ونعيمها شيء، حتى يكون أكمل له عند الله وأعظم لأجره.

يروى البخاري عن خباب بن الأرت قال:

هاجرنا مع النبي ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئا، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد لم يترك إلا نمرة[1]، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطى بها رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبي ﷺ: غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجله «الإذخر»[2] ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها.. أي يجتنيها.

ويروى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى

[١] النمرة: كساء مخطط.   [٢] الإذخر: نبت.

رجلاه بدا رأسه .. وأراه قال : وقتل حمزة وهو خير منى ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، أو أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا .. ثم جعل يبكى حتى برد الطعام .

وهذا يعنى أنهم كانوا يرفضون أن تكون غاياتهم مادية، وكانوا يخلصون لأهدافهم ومبادئهم السامية ، فلا ينالون عليها أجراً ولا يتطلبون جزاء قريباً ..

وهذه النظرة المثالية لا نتطلبها فى عصرنا المصور على المادة ، والمتكالب على متاعها ، لا يؤمن بغيرها ولا يتجاوزها إلى روحية أو مثالية .

ولكن حسبنا أن نتطلب من المسلم أن يرفض النظرة المادية للحياة ، وأن يضع المال حسب قيمته الأصيلة ، لا يعلو به عن قدره ولا يفتن بحبه حتى يذهل عما سواه .

حسبنا من المسلم فى هذا العصر أن ينجو من سعار المادية ويطرد من اعتقاده أن المادة هى كل شىء ، وأن النجاح

فى الحياة يقاس بمدى إحراز الثروة وابتغائها من كل سبيل.

وحسب المسلم أن يؤمن بأن للحياة هدفا أعلى من المال وأجل ، وأن للمال سبلا محددة يكسب منها فيكون طاهراً بريئا ، وأن له سبلا دنيئة ، يصبح بها لعنة وهلاكا .

وأن المال إن صرف صاحبه عن الاستقامة والجد ومعالى الأمور فهو نقص وخسران ..

* * *

إن من ينظر إلى المال فى المجتمعات المادية الحاضرة يجده قد أصبح إلهـــا يعبد ، وحاكما يستبد ، فهو الموجه وهو المسيطر ، وهو الغاية والوسيلة ، ولئن اختلف الشرق والغرب فى الأنظمة الاقتصادية ، وفى نظم الكسب والإنتاج .. فلا خلاف بينهما فى حقيقة النظرة .

فالاعتبار الأول عندهم المادة ، كل فرد ينشأ على تقديسها والسعى إليها ، لا يملك أن يستقل أو يسمو ، لأن عجلة الحياة تضطره إلى ذلك وإلا هلك فى ذلك الزحام الرهيب .

وأمتنا الإسلامية تقف اليوم على حافة الهـاوية ، فالعدوى تنتقل إليها سريعاً ، والأمراض تبدو فى كل أنحائها .

وواجبنا أن ننبه إلى مجتمعنا استقامته ورشده ، وأن نضع المال موضعه الحق ، وأن نجعل للمبادىء والأخلاق قيمتها الأصلية ، وأن نبرز أمام النـاشئة غاية الحياة الحقة ونعالج فيها أدواء التنافس الدنس والصراع الذى ينشر القلق ويشقى الحياة .

* * *

وهناك جانب له خطره فى وضع للمال فى المجتمع المسلم .. وهو أن الإسلام يرى أن ملكية البشر للأموال والثروات ليست على الحقيقة ، ولكنها استخلاف أو ابتلاء ، فهى ملكية معللة بحسن التصرف فيها على الوجه الذى يرضاه مانحها عز وجل ، وهو استخلاف محدد بغاية ، وإلا صارت الملكية نوعاً من الظلم والتعسف .

يقول الله سبحانه :

«آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»[1].

ومعنى ذلك أن المال هبة من الله لعباده، كما وهبهم سائر النعم المادية والمعنوية، وأن هذه الهبة مشروطة بأن يتصرف فيها صاحبها وفق ما شرع الله..

فلا مجال لإفساد المجتمع بالمال.. فذلك خيانة وجحود: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين»[2].

تلك عناصر النصيحة الإلهية لأولي الثروة، وذلك هو الصراط الذي ينبغي أن يسيروا عليه فإن حادوا عنه، فجمدت أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وجمدوا مشاعر الإحسان والخير وأضحى المال في أيديهم سلاحا يقضون به المضاجع ويبثون به الآلام، ويستعلون به على الضعفاء والبائسين فقد نقضوا عهد الاستخلاف وخانوا أمانة النعمة، ولا بد من عقاب الله وانتقامه..

---

[١] الحديد ٧.　　[٢] القصص ٧٧.

وقد ذكر لنا القرآن ما أصاب قارون جزاء استعلائه وحقده . .

« فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين »[1] .

وأصبح قارون فى قصته الغابرة ، عظة لكل طاغية ينسى واهب النعمة ومفيض الخير ، ويرى فى الثروة حقا ذاتيا يسوغ له التجبر والاستعلاء . .

« قال : إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا » .

والعجيب أن كثيرا من الناس ينسون ما يحيق بجحدة النعمة من أصحاب الثروات ، مع أنه لا يخلو عصر من عظة أو مثل ؛ فالله سبحانه لا يديم نعمته ولا ينشر بركته إلا حيث يشكر ويطاع . .

« وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم »[2] .

---

[١] القصص ٨١ . [٢] إبراهيم ٧ .

أما حين تصير الثروة منبعا للطغيان والجحود فلا بركة ولا خير ..

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1] . والقرآن يحذر من الاطمئنان إلى الثروات والاستناد إليها، ورفض الحق والوقوف في سبيله »..

فإن الثروة لا تحمى صاحبها من عقاب الخالق سبحانه الذى يعطى ويمنع .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا »[2] .

والسبيل الحق لاستدامة النعمة والإفادة منها أن يثبت فى القلوب أن الخير من الله ، وأن بقاءه وزكاءه رهن بحسن التصرف فيما وهب للإنسان ، وأن الثروة ليست تفويضا مطلقا لصاحبها ولكنها تكليف له سبل واضحة ومناهج مستبينة .

---

[١] الأنفال ٥٣ .

[٢] مريم ٧٣ ، ٧٤ .

— ٣ —

والآن فلنلم بالسبيل الذى يوجه الإسلام الثروات إليه ، ويصرفها إلى غاياته ، حتى يقوم الإنسان بحق النعمة ويفى بشروط الاستخلاف . .

إننا سنستغنى عن التفاصيل ونستعرض الأهداف العامة التى عرض لها الكتاب والسنة .

وأول ما يتطلبه الإسلام فى الأموال صغيرها وكبيرها أن تكتسب من « الحلال » وأن تكون طيبة مبرأة من الخبث والدنس .

وهذه نقطة يفترق فيها المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات التى لا تفرق فى سبل الكسب بين حلال وحرام .

ونعلم أن الحلال الذى يريده الإسلام ما لا معصية فيه ولا استغلال ولا عدوان .

فالمعصية سبيل مرفوض للكسب كالخمر والميسر والفسوق .

فمن الخمر يقول الرسول :

« لعن الله الخمر وشاربها وبائعها وحاملها والمحمولة إليه »[1]

والقرآن حينما تحدث عن تحريم الخمر لم يغفل جانب التجارة والكسب عن طريقها ، ولكنه وازن بين هذا الكسب المادي وبين جناية الخمر على العقل والشرف والمال ، وقطع بأن ضررها أكثر من نفعها ، ولذلك حرمها الله :

« يسألونك عن الخمر والميسر، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما »[2] .

ولكن المجتمع المسلم يسير في نظامه الاقتصادي وفي عقيدته ومثله ، لا تلجئه ضرورة من الضرورات ولا تحمله غاية من الغايات ، أن يكفر في جانب الاقتصاد بما آمن به في جانب العقيدة والأخلاق .. بل هو مجتمع متكامل يسير وفق خطته الشاملة لا يهبط ولا يحيد . .

---

[١] أخرجه البخاري .

[٢] البقرة ٢١٩ .

ولنأخذ مثلا تلك الآية التي حرمت دخول المشركين إلى المسجد الحرام وعزلتهم عن الحج حتى يخلص البيت الحرام للموحدين وحتى يعود إلى قواعده على ملة إبراهيم .

ولكن ذلك يعني أن تحرم مكة من نشاط اقتصادي يعود بالخير عليها من كثرة وفود الحجيج إليها ؟ فلا تغفل الآية هذه الحقيقة ، ولكنها تضحي بالمنفعة المادية وتلفت المؤمنين إلى أن مجتمعهم مجتمع عقيدة قبل كل شيء ، فليس للمادة فيها طغيانها الذي يزلزل المبادىء أو يحمل على التخلي عنها والغض من شأنها .. وتعلق الأنظار بفضل الله الذي لا حدود له .. فهو قادر على الإغناء وأكثر من ذلك قادر على البركة فيما وهب .

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . » .

تلك خطة المجتمع الإسلامي في الكسب وتمييزه بين مصادر المال ..

والحق أن المجتمع المسلم لا يستحق اسمه إلا إذا طبق في واقعه ما يعلنه في مبادئه ، مادام يرتضى الإسلام دينا ويؤمن بحقائقه كما جاء بها الكتاب والسنة ، سواء في ذلك جانب الاقتصاد وغيره من جوانب الحياة .

* * *

ثم يحدد الإسلام أساليب الكسب في مجال الحلال ، ويفاضل بينها ، فنرى في قمتها العمل .

والعمل هو السبيل الأمثل في نظر الإسلام لجلب القوت ولكفاية الحاجات ، فهو الطاقة البشرية التي أودعها الله في الإنسان لحفظ نوعه وعمارة الأرض وبقاء الحياة .

ولذلك نرى صور العمل في الكتاب الكريم مضيئة مشرقة محوطة بالرضا والتوفيق .

ففي الآية التي يخفف فيها القرآن الكريم من عبء قيام الليل على الرسول والمؤمنين يقول : « فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون

فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرأوا ما تيسر منه »[1] .

وترسم الآية بذلك صورا متنوعة يتمثلها الخيال « للضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله » فهى تشمل ألوانا لا تحد للكدح والسعى ، تطلبا للخير وعمارة لأرض الله ، ويبارك القرآن هذا السعى ويجعل غايته فضل الله . فمن الذى يحول بين العباد وبين فضل وهم يطلبونه .

فيعلن بذلك أن العمل هو الوسيلة المباركة التى جعل فيها الله سبحانه سر بقاء الحياة وسر عمارة الأرض واستخراج كنوزها ، وأن هذا العمل ضرب من الجهاد يعانى صاحبه ويخفف عنه من العبادة النافلة ليقدر عليه ويصبر فيه .

وهى صورة متكاملة ترسمها الآية للمسلم الحق ، الذى يوفق بين الإخلاص لخالقه وعبادته كما يليق به ، وبين الضرب فى أنحاء الأرض يستخرج منها الخير ويجنى منها النعمة التى أودعها فيها خالق الحياة ، فلا تعارض ولا اختلاف .

[1] المزمل ٢٠ .

هذا بينما تعتبر بعض الثقافات العمل والاهتمام بالحياة تخليا عن جانب الروح وجفاء العبادة

ولكنها خطة الإسلام الذى يمكن الإنسان من الموازنة بين حاجاته جميعا والسير فى حياته بلا تناقض ولا صراع.

ويذكر القرآن أن داود عليه السلام وهو نبى كريم ، كان صاحب صناعة يحقق منها الخير لنفسه ولمجتمعه .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون »[1]

ويذكر فى موضع آخر تمكن داود من صناعة الحديد واقتداره على ألوان ثقيلة منها:

« وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير »[2] :

ولقد أعجب الرسول صلوات الله عليه عمل داود فى كسب رزقه وأشاد به وجعله مثلا لأمته فى قوله :

---

(١) الأنبياء ٨٠ .
(٢) سبأ ١٠ ، ١١ .

« ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[1]. فهل يتسع المجتمع للمسلم بعد ذلك التبطل والقعود وابتغاء الرزق بالاستغلال والخداع .. أو الاحتكار والظلم ؟

وقد كان لهذا التوجيه الإسلامى أثره فى تفضيل العمل والارتفاع بقدره ، فكان الجميع يعملون ، ولا يجد الخليفة أبو بكر الصديق بأسا فى أن يمارس التجارة بعد توليه الخلافة ، حتى يضطره المسلمون إلى التخلى عن تجارته ليفرغ لمصالح الجماعة.

وقد عرف المجتمع الإسلامى للعمل قيمته فى كل عصوره فكانت الحرف تنتشر فى أنحائه ما بين تجارة وزراعة وصناعة، وكان الكثير من العلماء والأئمة يحترفون ويعملون بأيديهم . سيرا مع توجيه الإسلام واقتناعا بجدية فى الكسب الحلال.

ويكفينا أن نستعرض ألقاب الكثير من الأئمة والعلماء لنرى فيها صدى ذلك التوجيه :

---

[١] أخرجه البخارى - كتاب البيوع .

فقد كان فيهم (البزاز) و(الجصاص) و (القفال) و(الزجاج) و (الخراز) وغير ذلك من الصناعات والحرف ..

وبذلك لم يفرق الإسلام بين الحياة فى جانبيها : الفكرى والعمل ، وحطم بذلك نظرة الفلاسفة اليونانيين التى كانت تغض من شأن العمل اليدوى ، وتخلق طبقة من المتخمين القاعدين ، وتغرى بالنكوص عن العمل وتخصيص طائفة معينة له ، ولتكن من غير أمتهم من أرقاء الأمم الأخرى .. كما كانوا يرون .

* * *

ويلمح من إعلاء قيمة العمل فى كسب المال فى المجتمع المسلم ، إنكاره لكل كسب لا يصدر عن جهد ولا يقوم على بذل الطاقة سداً لمنافذ الظلم والاحتيال .

فالربا وسيلة مرفوضة للكسب فى مجتمع الإسلام ، فهو لا يعدو أن يصير امتلاك المال خصب موردا يزيد به المال وينمى دون جهد ولا مخاطرة وعمل ..

« وأحل الله البيع وحرم الربا »[1] . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »[2]

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس »[3].

وفى كل ذلك يعلن الإسلام حربه للكسب عن طريق الاستغلال وانتهاز ضوائق الناس وحاجاتهم لامتصاص دمائهم ومصادرة نشاطهم .

وهو بذلك يدفع أصحاب الأموال إلى أن يبتغوا نماءها ومضاعفتها عن طريق العمل والنشاط، فأمامهم مجالات الكسب الحلال لا تحد ، وهى تؤدى إلى حركة نامية تحقق الخير للجميع ، ولا تؤدى إلى حياة طبقة متضخمة من دماء طبقات أخرى .

---

[١] البقرة: ٢٧٥ [٢] البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩ [٣] البقرة: ٢٧٥

ولئن كان الكثير من المسلمين في مصرنا قد انزلقوا إلى هاوية الربا فإن من الضروري أن يبرأ مجتمعهم من علة الربا وأن يعود إلى ألوان العمل والكسب التي تتفق مع نظرة الإسلام ، وهي نظرة تنبع من مبادئه وتسير مع غاياته الفردية والاجتماعية .

والذي يتتبع أنظمة المعاملات الاقتصادية في الإسلام يجدها تسير وفق قاعدة محددة تقوم على إطلاق العمل والجهد والمخاطرة وسيلة طيبة للكسب، ورفض كل كسب لا جهد فيه ولا عمل ولا معاناة .

ومما يلفت النظر في ذلك حكم إجارة الأرض المزروعة في الإسلام .

فإن حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه في ذلك يتجه بالمسلم إلى أن لا يركن إلى الكسب عن طريق التملك فحسب ، ويدفع به إلى أن يعتمد على العمل والجهد . فيقول « لأن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ عليه خراجا معلوما [1] » .

---

[1] البخاري .

ومهما اختلفت أقوال الفقهاء فى إباحة المخابرة أى إجارة الأرض وتحديد أنظمتها ، فإننا لا يعنينا هنا إلا أن الإسلام يرجو فى مجتمعه أن يسود العمل القادرين وسيلة عامة للكسب وألا تصير الملكية للمال أو الأرض أو غيرها طريقا سهلا مأمونا للكسب ، على أن ما أحله الله لا يحرمه أحد مهما كان ، ولكن الأمر أمر مراتب ودرجات فى الكسب تتفاوت فى الجهد وتتفاوت فى الجزاء .

* * *

وبعد أن ينقى الإسلام موارد المال من المعصية والاستغلال والظلم فإنه يهتم بمصارف المال ووجوه إنفاقه ، حتى تتحقق للمال وظيفته الاجتماعية المرجوة ، ويأخذ مكانه فى تحقيق الأمن والخير فى المجتمع المسلم .

ويبدأ الإسلام فى موقفه من إنفاق المال بحرب داء خبيث يصيب الأفراد والمجتمعات ، فيجعلها تقبض الأيدى عن البذل وتمسح بالمال مؤثرة الكنز والاحتياز .

فيرى الإسلام فى اكتناز المال تعطيلا له عن رسالته ،

وتعبداً له يزيله من قيمته ويصرفه عن غايته ، ويضاعف من شقاء المجتمع ويزيد فى بلائه . . وما لهذا خلقه الله . .

ومن هنا يحذر الإسلام من النظر إلى المال على أنه « ملك خالص » لا حق فيه لأحد ، ويفرض حدا أدنى للإنفاق فى سبيل الله هو أداء الزكاة المفروضة على المال بكل أنواعه. وإلا صار المال كنزاً يعذب به صاحبه . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[1].

ولا يقف المجتمع المسلم من الذين يمنعون حق الله والناس فى أموالهم عند حد التخويف والزجر ؛ بل يحمى ذلك الحق بالقوة ، ويرى فى ذلك المنع كفرا برسالة الإسلام الاجتماعية وردة عن مفهوم الإسلام الرحيب ، من حيث هو رحمة وخير ومنهج عام لإقامة الحق والعدل فى كل مجال .

وبهذا الفهم البصير حارب أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة

[١] التوبة ٣٤ ، ٣٥ .

وقال : « لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

وهذا فقه المؤمنين ، فإن كانت الصلاة حق الله ليعبد ويعرف ، فإن الزكاة حق المجتمع الذى فرضه الله ليطمئن المجتمع ويصحه ويمسح آلامه ويشفى جراحه .

فأى فهم للإسلام يسقط عن المسلم الفرائض الاجتماعية فرضاله ؟ كما نرى فى بعض مجتمعاتنا الآن ..

وللحقوق الاجتماعية فى المال ، كما يراها الإسلام مكانها فى التكافل الاجتماعى ولكننا الآن نعرض للقيم العامة للإنفاق فى نظر الإسلام .

* * *

والحق أن الإسلام يحث دائما على الإنفاق ولا يقر مبدأ الكنز والاحتياز فإن ذلك الإنفاق حين يتجه إلى سبيله المستقيمة خير للفرد والمجتمع .

خير للفرد وأزكى ، إذ يبرأ من الشح ، وهو تعلق القلب بالمال وفتنته باحتيازه وهو داء قاتل مهلك ، يودى بالإنسان ويعصف بإيمانه .

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون [1] » ويقول الرسول : « شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع [2] » وهو خير للمجتمع وأسعد ، إذ يؤدي إلى دورة اقتصادية نشيطة ، ويصل إلى مواطن الحاجة ، فيتمكن المجتمع من تحقيق غاياته ويتخلص من كثير من أدوائه . فما يزال الإسلام يهتف بأبنائه لينفقوا ويهديهم إلى أفضل الوجوه وأزكاها ، حتى لا تقف في المجتمع دورة الخير ، أو تهدأ فيه عزائم التكافل ومشاعر الإحسان . وفي صورة القرآن المتكررة للإنفاق لا يني عن مواجهة الشح ومراجعة وساوس الأثرة ومشاعر الاكتناز ولا يترك لها سبيلا لتحاصر المجتمع وتضيق عليه منافذه .

يقول الله سبحانه : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » [3] . وفي ذلك يقاوم الإسلام « البخل » داء اجتماعيا يعني قبض الأيدي عن الحاجات البادية في المجتمع ، والتغافل عن نداء الخير ، فإنه يعلم أن مجتمعا يصير إلى ذلك

[1] الحشر : ٩ [2] أخرجه البخاري في التاريخ وأبو داود . [3] محمد ٣٨ .

المآل يصبح خرابا من الخير شقيا بأبنائه لا يرتفع فيه بناء المرحمة ولا تختفى منه أشباح البؤس والمهانة .

وما بذلك لا يرضى الإسلام .

* * *

ويحذر القرآن الأشحاء من مباغتة الموت وقد ضيعوا حقوق المجتمع فى أموالهم فتغدو أموالهم أمانة مضيعة ونعمة مجحودة ، تورثهم سوء العذاب .

يقول الله سبحانه : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون[1] » .

فيكشف بذلك للأفراد مغبة الذهول عن حاجات المجتمع والتثاقل عن أداء فروضه والمشاركة فى مطاردة البؤس من أرجائه ، فإن أموالهم حين يفجأهم الموت لن تغنى عنهم شيئا ولن تكشف عنهم سوء الحساب وبأس العذاب .

فأولى بهم أن يصرفوا هذه الثروات إلى سبلها الدائمة الخالدة التى ترفع من أقدارهم عند الله وعند عباده . .

---

[١] المنافقون ١١ .

وحين يتجه الأغنياء إلى مصارف الأموال الرشيدة يستحقون الثناء والغبطة فقد تخففوا من أثقل الأعباء واجتازوا أدق التجارب ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ .

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس[1] » .

والتعبير في الحديث يكشف بإيجاز عن أبرز الجوانب في نظرة المجتمع المسلم إلى المال :

« آتاه الله » فالمال في الحقيقة ملك لله ، وصاحبه مستخلف فيه لينجح في الاختبار أو يفشل .

و « سلطه » تعبير عن اقتناع ذلك الغنى بنظرة الإسلام إلى المال ، واهتدائه إلى المصرف الحق لتلك النعمة التي آتاه الله فاستجاب للتوجيه وأسرع إلى سبيل الفلاح ..

« وهلكته » ترينا إلى أي مدى يرجو الإسلام أن يصل الأغنياء في الاستجابة لحاجات المجتمع حتى لو اقتضى الأمر

[١] البخارى .

إنفاق أكثر ما يملكون أو كله ، وهو يترك لهم الذي فسيحا بين الحد الأدنى والغاية العليا لتتسابق الهمم وتتنافس العزائم .. حتى ليكون فيهم من يجعل مثله الأعلى أبا بكر الصديق رضى الله عنه حين احتمل ماله كله ليضعه بين يدى رسول الله ﷺ ليجهز به « جيش العسرة » إلى تبوك ، تعبيرا عن يقينه بالله وعبوديته المطلقة له ، ويجيب رسول الله ﷺ حين سأله يستكشف الباعث الذى حمله على تلك التضحية: « ما أبقيت لأهلك ؟ فيقول : أبقيت لهم الله ورسوله » .

وهو استعلاء نادر فوق كل ما يحسب الناس حسابه ، وطموح إلى آفاق روحية سامية لا يقدر عليها مجتمع مادى يتعبد الثروات ويستذل فى سبيلها ..

ولكن المجتمع المسلم دائما يضع البواعث فى كل جانب لينجو أبناؤه من فتنة المال ، وليمكنهم التصرف الرشيد فيما وهبهم الله ، وبذلك يفلح المجتمع ويسعد

(٤)

ولا يغفل الإسلام أذن النفس الإنسانية تطلعا إلى الكسب وطمعا فى الزيادة والنماء ، فيضع أمام أولئك حافزا صادقا ،

وهو أن عاقبة الإنفاق الخلف وعاقبة الإمساك التلف .

وبهذا الحافز يهتف ملكان من ملائكة الله في مطلع كل صباح :

يقول رسول الله ﷺ :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يناديان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » .

ولا بد أن يتحقق ذلك النداء ، فنرى في الحياة صداه ، فكم من أموال ينفقها أصحابها عن طيب نفس ، فتنمى ثرواتهم وتضاعف ويجنون في أنفسهم الرضا والطمأنينة ويشعرون بالتوفيق والسعادة .

وكم من أموال احتبسها أصحابها وضنوا بها عن الخير فكانت عاقبتها التلف أو الانتهاب ..

إن المال الذي ينفق منه صاحبه كالماء الجاري يتجدد ويطيب

أما المال الذي يشح به صاحبه فهو كالماء الآسن تعلوه الطحالب حتى يجف ويجمد .

ومن هنا كان ترغيب الإسلام في الإنفاق واهتمامه بتنشيط دورة المال في المجتمع حتى ليأتي غالبا في وصف المؤمنين في القرآن : « ومما رزقناهم ينفقون[1] » .

ويأتي في صفات الكافرين قبض اليد والشح وجحود حق المجتمع .

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين[2] » .

« أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا وأكدى[3] » .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم[4] »

وهكذا يتضح لكل فرد في المجتمع المسلم قيمة « الإنفاق » فيحدد سبيله ويختار وجهته ..

وقد كان الرسول ﷺ مثلا أعلى لأصحابه في الإنفاق في سبيل الله وعدم الإصغاء إلى داعي الشح والإمساك ، ومادام الإنفاق في الخير فلابد أن يجر على صاحبه الخير .

وبذلك أوحى الله إلى رسوله فيما يقول :

« وأنفق فسينفق عليك[5] » .

---

[١] البقرة ٣ . [٢] الحاقة ٣٣ ، ٣٤ .

[٣] النجم ٣٣ ، ٣٤ . [٤] التوبة ٣٤ . (٥) رواه مسلم .

وبذلك أعلن الرسول فى قوله لبلال :
« أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا »[1] .

* * *

ولكن الإسلام يحتفظ فى موقفه من الإنفاق بسمة يوجه إليها أبناءه .

فليس معنى « الإنفاق » فى المجتمع المسلم مرادفا لمعنى « الاستهلاك » فى المجتمعات الأخرى .

ذلك لأن الإسلام لا يرحب بأن تتجه المصارف إلى اللذات والرغبات ، ولا يعد الترف خطة مثلى يرتضيها لمجتمعه .

فمن الواضح أن المبادىء التى يقوم المجتمع المسلم لتحقيقها لا يناسبها أن ينصرف الناس إلى إرضاء الرغبات وإشباع حواس الترف ، فهو مجتمع جهاد وتضحيات ، والمجتمع تعاون وتكافل ، وإذا ما اتسعت قاعدة الترف وشاع التنعم والخيلاء فإن ذلك يعنى انتقاص مبادىء المجتمع وتعويق غاياته .

---

(١) الطبرانى .

ومن هنا كان الإنفاق الذي يرحب به المجتمع المسلم ويحث عليه ، هو الإنفاق في السبل العامة ومصارف الإحسان والخير .

وحينئذ فليس في الأمر إسراف ولا تبذير ، ولا يعدو أن يكون نزولا من الفرد عن جانب من الثروة لخير المجتمع تنفق في الضرورات ، وتسد بها الثغور .

أما تملق الشهوات والمبالغة في اللذات وابتغاء ألوان الترف ، فليست سبيل المجتمع المسلم وليس في عاقبتها رشده وصلاحه ، وذلك هو سر حملة القرآن على الترف وكراهته للإخلاد إلى المتاع .

فالترف الذي يجاوز الحد ولا يبالي بالفسوق وانتهاك الحرمات ، يودي بالمجتمع كله ، كما يقرر القرآن :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[1] .

وبقدر ما يحرص الإنسان على اللذات يتوقى الحرمان منها فينكل عن الجهاد ، ويؤثر جانب الباطل ، وفي ذلك هلاكه .

(١) الإسراء ١٦ .

ومن هنا يقال للكافرين : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون »[1].

إنه الاستمتاع المتهالك الذى يتبع مواقع الشهوات أنى كانت ، ويؤثر اللذائذ من أى سبيل وهو استمتاع لا يبقى لصاحبه رشدا ولا يؤمن له سبيلا ، والمؤمن مطالب ألا يتهالك على النعيم ، وأن يحتفظ دائما بخصائص البساطة والاستقامة مهما كان حظه من المال والغنى .

وذلك ما يريده الرسول بقوله : (إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين)[2] .

وخير للمسلم أن يجعل ماله فى خدمة العدالة الاجتماعية لقاعدة المجتمع المسلم ، من أن يغنيه فى سبل الترف وتذروه رياح الأهواء ، وهو محاسب يوم القيامة على ماله : « من أين اكتسبه وفيم أنفقه »[3] .

---

(١) الأحقاف ٢٠ .   (٢) أخرجه أحمد فى مسنده .

(٣) أخرجه الحاكم .

ويصل الأمر بالمجتمع المسلم أن يفرض حدا أدنى يتمثل فيه الحق الذى يطالب به المسلم وما عداه فضول وأشغال .

ويقول رسول الله ﷺ : (ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الثلاثة : بيت يواريه وثوب يستره وجلف الخبز والماء).

والحق أن المجتمع المسلم لا يغرى الإنسان بالاستزادة من النعيم ولا يرضى له حياة الترف فهو خبير أن ذلك ليس خيرا للإنسان ، ولكنه فتنة ومخاطرة .

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه »[1] .

وعلى ذلك كان السلوك فى أمثل فترات المجتمع المسلم ، فى عصر الرسول وخلفائه الراشدين : بساطة فى الحياة وزهد فيما يحرص عليه الآخرون من وسائل التنعم ، ونظرة إلى الدنيا فى فنائها وانقضائها تزرى بكل لذة وتهون من كل مشقة .

وبذلك استطاع المجتمع المسلم أن ينطلق إلى غاياته ، ويحتفظ بعافيته ، فكان قوة مؤثرة فى المشارق والمغارب .

---

(١) طه ١٣١ .

ولكن الفترات التي فتن فيها الناس بفنون الترف ، وأكبوا على الملذات كانت ثغرات مروعة انحرف فيها المجتمع المسلم وهان .

* * *

على أن الإسلام يكره الإسراف في كل شيء ، وينهى عن التبذير في المال ، بوصفه جريمة تبدد الثروات في غير نفع وتجلب كثيراً من الخطايا والآثام .

ولهذا فإن منهج الإنفاق لديه في شئون الحياة منهج وسط ، لا فضول فيه ولا تكلف .

يقول الله سبحانه :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »(١) .

ويقول : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا »(٢) .

(١) الإسراء ٢٩ .
(٢) الإسراء ٢٦ ، ٢٧ .

ويرى أن الاقتصاد في النفقة خير يقدمه الإنسان لنفسه ولمجتمعه حتى لا يشيع الإسراف ويفسد على الناس حياتهم.

وأولى بالمرء كما يقول الرسول : « أن يأخذ من شبابه لهرمه ومن غناه لفقره ، ومن صحته لسقمه ومن فراغه لشغله ».

وإذا ما تعود الأفراد الاقتصاد وتخلوا عن الفضول والترف تخلص المجتمع من كثير من ألوان الفساد والاختلال. فقد كان الترف في الأجيال المتعاقبة مادة الفساد وأعداء كل خير وإصلاح .. على نحو ما يصفهم القرآن :

« وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون »(١).

* * *

ويبقى في حديثنا عن المال في المجتمع المسلم أن نعرض لموقفه من الملكية وخطته التي يرضاها في هذا المجال .

إن الملكية في الإسلام تستمد بقاءها من رعايتها لشرطين مهمين يحققان العدالة وينفيان عنها كل ما أحاط بها من مظالم وويلات:

---

(١) سبأ : ٣٤

أولهما : أن تأتى الملكية من مصدر يقره الإسلام ، لا بغى فيه ولا افتيات .

وأما مصادر الملكية التى يرضاها الإسلام :

العمل .. كما أشرنا إلى ذلك قريبا .

والعدالة تقتضى أن لا يحرم الإنسان ثمرة كسبه وألا يحال بينه وبين ما ناله بدأبه وجهاده .

وهذا المصدر لا يحقق فاحش الثراء، ولا يسبب واسع الفوارق.

فالعمل الإنسانى فى عمومه لا يحقق إلا الكفاية والرخاء، ولا يخطر فى بالنا الاستغلال والجشع ، وما يصدر عنه من طغيان فى الثراء واستعلاء فى الأرض ، فذلك ليس عملا ولكنه ظلم وانتهاب .

أما العمل الذى يحترمه الإسلام ، فهو الجهد الإنسانى المتكافىء فى القيمة والجزاء .

ويعترف الإسلام بالميراث طريقا لانتقال الملكية وينظمه بقواعد محددة .

وهو طريق لتحقيق العدالة وتفتيت الثروات الكبيرة إلى أجزاء صغيرة حفاظا على توازن المجتمع ..

وهو بهذا « فريضة من الله » أى حكم أراد به الحق والعدل ، رعاية لعلاقات الرحم وتحقيقا لقصد الإنسان من أنه يكد ويسعى لخير أهله وأحفاده .

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »[1]

ويدل على هذا أن « بيت المال » يرث من لا وارث له ، لأن الأمر ينتقل بعد ذلك إلى حق المجتمع كله فى هذه الثروة ، حين لا يكون لها مستحق قريب .

* * *

فإذا خرج أمر الملكية الفردية عن نطاق الكسب المشروع فلا حرمة لها ولا كيان فى الإسلام فلا يقر الإسلام الاغتصاب والانتهاب من الفرد أو الجماعة ، ويرى فى ذلك ظلما لا بد أن يرفع وحقا مسلوبا لا بد أن يرد .

ومن هنا قامت الأوضاع الجائرة التى عانى منها المجتمع الإسلامى ، والتى كانت مصدر الاضطراب والشقاء فى شتى العصور .

وحين نحاكم تلك الملكيات أمام الإسلام نرى أنه لا يقر

(١) الأحزاب : ٦ .

مصدرها ، فلم تملك بعمل ولم تورث من سالف ، ولكنها كانت غلولا وخيانة زعزعت بناء العدالة فى المجتمع المسلم .

ومن هنا نرى أن رعاية هـذا الشرط فى أسس الملكية الفردية ينفى كل المآثم ويحقق كل الزايا التى تنسب إليها .

ولو أن المجتمع الإسلامى حافظ على عهده الأول ، وحقق مبادىء الإسلام فى الملكية الفردية لسعد بالعدالة الاجتماعية ، واحتفظ بعافيته وأمنه ، فى كل عصوره بعيداً عن المظالم التى أحلت به الضعف والهوان .

* * *

وثانى الشرطين اللذين يفرضهما الإسلام تجاه الملكية : أن تقوم بواجباتها الاجتماعية وأن تؤدى الحقوق المفروضة ، باعتبار أن الإســـلام يجعل الملكية غاية اجتماعية ويجعلها أمانة تبقى فى يد صاحبها ، ما دام قائما بالحق مؤديا للأمانة .

وأول واجبات الملكية أن تقوم بدورها فى حرب البؤس والفقر ، وأن تفى بعهد الاستخلاف الذى أخـذه الله عليها

فى قوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » [١] .

فقد كانت الملكية نوعا من أنواع الاختبار التى فرضها الحق سبحانه على عباده ليبلوهم : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » [٢].

ومن هنا فإن واجب المالك أو المستخلف أن يؤدى ماشرطه واهب النعمة ومالك الكون ، من الإنفاق فى مواضع الحاجة وبذل المال عن طواعية واختيار فى سبله المحمودة .

فإن الإسلام لا يرى أن الملكية حق مطلق ، ولكنها حق مطلق بواجب إذا لم يؤده المالك صارت الملكية شراً على المجتمع ، ينزع عنها الإسلام التقدير والاعتبار .

وهل يسكت الإسلام عن الأوضاع المختلفة ، التى تتكدس فيها الأموال فى جانب ويتكدس الحرمان والفقر فى جانب آخر .

كلا .. لقد ضرب الإسلام المثل فى ذلك ، ونادى من أول الأمر أنه مادام فى المجتمع فضل وما دامت فيه حاجة ، فلابد أن تنصرف فضول الأموال إلى مواضع الحاجات فريضة لازمة .

---

(١) الحديد ٧ . (٢) الأنعام ١٦٥ .

وأشهر الأمثلة فى ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى قال :
« بينما نحن فى سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة ، فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له ـ فذكر من أصناف المال ما ذكر ـ حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل »[1] ولكن هل يقف الإسلام عند حد الترغيب والدعوة إلى الإنفاق ... أم هناك واجبات تفرض على الملكيات لتحمل أمانتها ؟ الحق أن الإسلام يعتمد على الإقناع والوصول إلى الوجدان أولا . إنه عقيدة لا بد أن تعمل عملها فى القلب ولا بد أن تصدر الأعمال عن طواعية واختيار .

ولا بد أن يلفت النظر إلى الوسائل العديدة التى سلكها الإسلام للدعوة إلى الإنفاق وسد الحاجات وكفالة المحتاجين . إلى حد أن جعلها إقراضا لله سبحانه مالك السموات والأرض ليستثير النفوس بأعمق الأسباب .

(١) أخرجه مسلم وأبو داود .

« من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون »[1] .

إن هذا الاهتمام بالوصول إلى القلوب أولا يكشف خطة الإسلام العامة فى تحقيق كل ما يدعو إليه ، بفضل الرغبة على الرهبة والاختيار على القسر .

ولكن ماذا نصنع حين يستأثر الشح بالقلوب ، وحين تفسد النظرة ، ويختل التقدير ، فيكون « المال دولة بين الأغنياء » ويقبض المالكون أيديهم ويصمون آذانهم عن دعوات الخير والإحسان .

إنه لا بد هنا من عمل يقطع على الشح طريقه ويحمى المجتمع من الضعة والهوان .

وهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول قبل وفاته : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين » .

وعلى بن أبى طالب يقول : « إن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم » .

(١) البقرة ٢٤٥

ومن هنا يقول ابن حزم :

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم » .

وهذا يعنى أن الإسلام يفرض عند الحاجة أن يقوم الأغنياء بحاجات الفقراء ولا يترك الأمر إلى الدعوة والترغيب فحسب ، وإن كان يؤثر دائما أن يقنع أخوه بنظرته إلى الملكية ، وتقديره للأموال ووضعها فى المجتمع .

• • •

وقد عرف الإسلام نظام (الملكية العامة) وأجازه فيما يتعلق بخير المجتمع كله وفى سبيل رعاية أهدافه .

يقول الرسول صلوات الله عليه (لا حمى إلا لله ورسوله) .

وقد حمى عمر رضى الله عنه أرضا لخيـــل المسلمين . .

ويفترض أن المرافق العامة والمصالح المهمة لا بد أن تكون فى أيدى المسلمين جميعا لا يستأثر بها أحد ولا يستعملها لنفعه وحده . كما يقول الرسول : (الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار [1]) .

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود .

ومعنى هذا الاشتراك أن يكون لهم جميعا حق الانتفاع بها على سواء، وذلك يقضى أن تكون فى ملك المسلمين جميعا وتحت سلطانهم .

* * *

وهكذا نرى سياسة المال فى المجتمع المسلم، وندرك إلى أى مدى يعمل الإسلام فى تحقيق العدالة وتسخير المال لخير المجتمع كله، وتحرير الإنسان من التعبد للمال والاستذلال أمامه .

ولو سارت الأمة الإسلامية فى طريق الإسلام لما احتاجت إلى مبادىء تجتلب لها من الأنحاء أو إلى نظم غريبة .

ولا بد أن نفهم أن سياسة المال فى مجتمع الإسلام منهج متكامل، وليست إجراءات ظاهرية أو شعارا يعلن، لكنها مرتبطة بخطته فى الأخلاق والتربية والقيم والحقائق وإقامة الفرائض ثم ابتغاء النوافل . لا تهمل الزكاة، ولا تغفل دور العقيدة فى تصحيح النظرة وإقامة الاتجاه . وإن أخطر ما يتهددنا أن تسيطر النظرة المادية إلى الحياة، وأن نهمل خطة الإسلام فى تحقيق التكافل والطمأنينة بأسلوبه السهل المستقيم ؟

د . مصطفى عبد الواحد

مطبعة الأزهر

٦٥٠٠/٣/١٩٧١

